الفصل الثانى
الدكتور محمد إقبال (*)
والاستلاب الثقافى

● فى (مرافئ) صفحته الشهرية فى (المجلة العربية) السعودية الغراء كتب الأخ الأديب الأستاذ حمد عبد الله القاضى فى مرافئه التى تشع نورا وجلالا وجمالا خاطرة تحت عنوان: «أيها المبهورون كفاكم انبهاراً ...!!» أوضح فى بدايتها أنه ليس ضد التواصل الحضارى المثمر، وهو مع «تلاقح المدنيات ... مما يثرى البشرية وتعود جدواه على الإنسان فى كل بقاع الأرض!» (١) ولكنه ضد الانبهار بمدنية الغرب إلى درجة الاستلاب الفكرى وإلى درجة اعتقاد بعض المبهورين أن كل ما فى الغرب جميل ومضئ» (٢)، ويختتم كلمته تلك بنداء يوجهه إلى أولئكم النفر يقول فيه: «أيها المبهورون كفاكم انبهاراً !! – أيها المستلبون – كفاكم استلاباً!» (٣).

● والحقيقة أن القضية التى أثارها الكاتب الكريم فى مرفئه الرئيسى من مرافئه الجميلة جد خطيرة، إذ إن الانبهار بمدنية الغرب الأوروبى أمر واقع لا محالة ما لم يكن المسافر أو المبتعث إلى البلاد الأوروبية والأمريكية محصنا بثقافة حضارته الإيمانية، مقتنعا بثوابتها متحمسا للتبشير بقيمها وأخلاقها، فإذا كان المسافر أو المبتعث إلى تلك البلاد مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولم يرب التربية الإيمانية، ولم يثقف الثقافة الإسلامية الواعية سهل أن يقع فريسة للإيمان بالغير ونكرات الذات الحضارية لأمته، ويصير بعد ذلك صيداً ثميناً للمبشرين بدين الصليب والمستشرقين الماكرين، ومن ثم يكون

(*) نشرت هذه الدراسة فى مجلة (منار الإسلام) (صفر ١٤٢٠ هـ مايو ١٩٩٩ م).
(١) المجلة العربية – العدد (٢٢٢) السنة ٢٠ رجب ١٤١٦ هـ – ديسمبر ١٩٩٥م.
(٢) السابق ص ١٠٣. (٣) السابق ص ١٠٣.

الانبهار بالغرب وثقافته ومدنيته ويتحقق الاستلاب الفكرى والثقافى وربما العقدى أيضا !!!.

ولقد هاجت تلك القضية شجونا كانت كامنة فقفزت إلى صفحة الذاكرة شخصية العلامة الحكيم الدكتور / محمد إقبال الملقب بشاعر الإسلام أو شاعر الحب والطموح والإيمان – كما لقبه نابغة الأدب العربى الإسلامى شيخ القارة الهندية العلامة / أبو الحسن الندوى حيث لشاعرنا الحكيم الدكتور إقبال تجربته مع الحياة الأوروبية فى بدايات القرن العشرين الميلادى امتدت بتردده على أوربا زائراً ومفاوضا سياسيا فى مؤتمر المائدة المستديرة فى ثلاثينيات هذا القرن لبحث استقلال باكستان وتأسيس دولة للمسلمين فى شبه القارة الهندية تشمل المناطق ذات الأكثرية الإسلامية فى السند والبنجاب والبنغال، ومن ثم كانت دولة باكستان التى أعلنت عام ١٩٤٧م بعد وفاة العلامة إقبال الذى كان واحدا من أبرز مؤسسيها مع الزعيم محمد على جناح بنحو تسع سنوات.

● والعلامة الشاعر الدكتور / محمد إقبال شاعر بين الفلاسفة وفيلسوف بين الشعراء، أو هو شاعر الحكماء وحكيم الشعراء – كما لقبه العلامة الدكتور / زكى على الأديب الإسلامى المهاجر المقيم فى جنيف منذ ثلاثينات هذا القرن أطال الله عمره وإقبال رجل دولة وقانون وسياسة ولقد تلقى شاعرنا الحكيم تعليمه الأول فى مكتب لتحفيظ القرآن الكريم، والتحق بالمدرسة الابتدائية والثانوية ببلدته سيالكوت فى إقليم البنجاب، وجاز امتحان الثانوية بامتياز وتعلم اللغتين العربية والفارسية، ثم أتم دراسته بالكلية الحكومية بلاهور عاصمة البنجاب ونبغ فيها وبزّ أقرانه، وتخرج فى الكلية الحكومية بامتياز فعين مدرسا للتاريخ والفلسفة والسياسة فى الكلية الشرقية بلا هور ثم أستاذاً للغة الإنكليزية والفلسفة فى الكلية الحكومية، ولما أنس فيه أساتذته البراعة والدقة أرسلته وزارة المعارف إلى لندن عام – ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة (كامبردج) وحصل على درجة علمية فى الفلسفة وعلم الاقتصاد ثم أم جامعة ميونخ بألمانيا حيث حصل

على الدكتوراه فى الفلسفة، وما لبث أن عاد إلى لندن ليحضر الامتحان النهائى فيحصل على درجة علمية فى الحقوق [١].

● وليس يخفى على أحد ما كانت عليه الحياة فى بلادنا العربية والإسلامية فى العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن العشرين من حيث التقدم الحضارى وامتلاك وسائل التقدم بالقياس إلى المدنية الأوروبية آنذاك، خلافًا لما هو عليه واقع بلادنا العربية والإسلامية فى عصرنا الحاضر من تقدم كبير يمثل طفرة فى اتجاه امتلاك وسائل الحضارة الحديثة وأدواتها من نتاج التقنية الأوروبية والأمريكية أو اليابانية مع ارتقاء الحياة فى بلاد العروبة والإسلام ماديًا لدرجة الترف الاستهلاكى فى بعض بلداننا الغنية مما يفوق مثيله فى بلاد المدنية الحديثة ذاتها بعض الأحيان!، وبرغم ذلك نجد شاعرنا الدارس المفكر المحصن بتربيته الإيمانية وثقافته الواعية لا ينخدع بزيف (الشكل) الحضارى الغربى فى أوروبا، ويقف من تلك الحضارة إبان إقامته فى ديارها متنقلاً بين ربوعها وحواضرها موقف الناقد البصير متمثلاً القاعدة الأدبية الإسلامية التى تقول: «خذ ما صفا ودع ما كدر» فيقبل من ثقافة الغرب ما هو قيم ونافع ويرفض ما هو سلبى واستهلاكى مما يتصادم مع جوهر الإنسانية فى الإنسان، يساعده فى ذلك نظر ثاقب وعقل مؤمن ناقد وقدرة على التنظير، فتحقق فيه وفى أمثاله من أبناء العرب والمسلمين النابهين مما دعا إليه الأستاذ/ حمد القاضى فى كلمته المشار إليها آنفًا من تمثل التواصل الحضارى أو التلاقح الحضارى المثمر، وتجنب ما أسماه كاتبنا «الانبهار بمدنية الغرب إلى درجة الاستلاب الفكرى» أو بتعبير آخر الانسحاق والانهزام الحضارى أمام ثقافة الآخر القوى الغالب.

● ونجد شاعرنا إقبال إبان فترة إقامته فى لندن يتفاعل مع الحياة الأوروبية يؤثر فيها ويتأثر بها دون أن يذوب فيها أو ينهزم نفسيًا أمام ما فيها من قوة وتقدم وإبهار فى وسائل الحياة، لكن نراه يحاضر عن الإسلام ويساهم بجهد كبير

---

(١) الجوهرى عبد اللطيف. مع إقبال شاعر الوحدة الإسلامية الطبعة الأولى. مكتبة النور القاهرة. ١٩٨٦م ص ١٨، ص ١٩.

فى الدعوة إليه والتعريف به مما أكسبه ثقة وشهرة واسعتين وانتفع بتلك الفترة التى قضاها فى ربوع البلدان الأوروبية أيما انتفاع، فأكب على دراسة الفلسفة الغربية وفكر الفلاسفة الغربيين أمثال هيجل ونيتشه وشوبنها ور وقام بمقارنات بين أفكارهم وأفكار الفلاسفة المسلمين أمثال ابن رشد وابن سينا وغيرهما، وعمل فترة أستاذاً فى جامعة لندن لتعليم اللغة العربية وذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق فى بلاد الإسلام وديار المسلمين وفى بلاد الغرب حيث الحضارة الأوروبية (١).

● وفى قصيدته (فى مدينة رسول الله ﷺ) التى ترجمها إلى العربية نثراً دريًا العلامة أبو الحسن الندوى فى كتابه الرائع «روائع إقبال» يتحدث الشاعر إقبال عن تجربته خلال إقامته فى أوروبا فيقول: «كنت كطائر يقع على شبكة فيقرض الحبال ويأخذ الحَبَّ ويطير بسلام ... يعلم الله أنى رحلت فى هذه العلوم واكتويت بنارها - يقصد علوم الثقافة الأوربية - من غير أن أُرزأ فى عقيدتى وخلقى وصلتى بك - يخاطب النبى ﷺ - وقد جلست فى نارها بشجاعة، وخرجت منها بسلام، كما كان شأن إبراهيم عليه السلام مع نمروذ» (٢).

● وقد بلغ شاعرنا محمد إقبال أن صديقا قرشيًا له مفتون بالفلسفة حتى زلزلت عقائده زلزالاً شديداً، فكتب إليه يقول فى إحدى قصائده: «أنا رجل كما تعرف أرجع فى أصلى إلى - سومنات - المعبد الوثنى المعروف فى الهند وكان آبائى من عباد اللات ومناة وأن أسرتى عريقة فى البرهمية ... وأنت تجرى فى عروقك دماء الهاشميين وتنتمى إلى سيد الأولين والآخرين ... وقد امتزجت الفلسفة بلحمى ودمى، وجرت منى مجرى الروح ورغم ذلك كله فإنى أقول: «إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجابًا للحقيقة، وإنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة وإن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل؛ هذا هيجل الذى تبالغ فى تقديره، إن صدفته خالية من اللؤلؤ ... وإن نظامه ليس إلا وهماً

---

(١) السابق ص ١٩.

(٢) السابق ص ١١٤، ص ١١٥.

من الأوهام ... لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد، وفقدت شخصيتك فأصبحت أسيراً لـ «برجسون» إن البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها، وكيف تخلد شخصياتها، إن بنى آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستوراً للحياة، ولكن الفلسفة لا تساعدهم على ذلك ... إن المؤمن إذا نادى فى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون، إن الدين هو الذى ينظم الحياة وإنه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ومن الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله، وأن من بحث عن مسالك النجوم لم يستطع أن يسافر فى بيداء أفكاره» (١).

● وعلاج الافتتان بالآخر الغالب وثقافته والعالم الأول بعنصريته واستعلائه على سائر عباد الله من غير ذوى الدماء الأوربية تلك العنصرية التى فضحتها مأساة البوسنة فى ثلاث السنوات الأخيرة ... علاج ذياك الاستلاب الفكرى والحضارى يكمن فى التربية الأولى، وفى التعليم الحق وفى المعلم المؤمن الواعى المخلص لآمال أمته فى حياة العزة وعزة الحياة، فإقبال يلقى بتبعة ذلك الاستلاب الفكرى والثقافى للشباب المسلم على التعليم وولاته فيقول: «أشكو إليك يا رب من ولاة التعليم الحديث إنهم يربون فراخ الصقور تربية بُغاث الطيور وأشبال الأسود تربية الخروف» (٢). ويصف تلكم النماذج من أبناء أمتنا المستلبين فكريًا وثقافيًا بقوله: «إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح، مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد فى هذا العالم شيئًا، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ينكرون أنفسهم ويؤمنون بغيرهم، يبنى الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأديارا، شباب ناعم رخو رقيق فى الشباب كالحرير، يموت الأمل فى صدورهم ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية» (٣).

● ويدرك شاعرنا الحكيم – رحمه الله – دور المعلم وجلال رسالته فى

---

(١) السابق ص ٣٢، ص ٣٣.
(٢) السابق ص ٣٥.
(٣) السابق ص ٣٩.

تنشئة المتعلم وتربيته وأثره فى مستقبل الأمة وحياته فيتوجه ويناشد الله أن يقوم برسالته نحو أبنائه على الاعتزاز بالنفس والتنبيه إلى الدور الحضارى المنوط بأمة الإسلام فى قيادة البشرية وهدايتها نحو شاطئ الإسلام ودوحة التوحيد فيقول: «حيا الله شبيبتك يا مربى الجيل الجديد! ألق عليهم درس التواضع وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال، فإن الغرب لم يعلمهم سوى صنع الزجاج»[1].

● وبعد: فلعل ما قدمته من تجربة إقبال مع الثقافة الأوروبية وهو مَنْ هو قدراً ومكانة فى بناء الثقافة المعاصرة فى بُعدها الإسلامى خاصة والإنسانى عامة، حتى ليضع أهل الفكر والأدب والفلسفة إقبال فى مصاف المفكرين العالميين وأشهر رجالات العلم والأدب والسياسة فى القرن العشرين الميلادى، أقول لعل تجربة إقبال مع الحياة الأوروبية تكون نبراساً هادياً لأبناء أمتنا فى تعاطيهم ثقافة الغرب الأوربى والتفاعل مع أساليبها ونتاجها، والله الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

(١) السابق ص ٤٢، ص ٤٤.